

## قراءة في الإبداع الأدبي - للأمير عبد القادر الجزائري -

عمارية حاكم<sup>(1)</sup>

### مقدّمة

أحاول أن أسلط الضوء على الجانب المغمور من الإبداع الأدبي للأمير عبد القادر الشاعر والبطل والمتمثل في الرموز الصوفية في شعره الذي لم ينظر إليه إلا من الناحية السياسية أو العسكرية، ولو أنه هناك ثلة قليلة من الذين تفتنوا إلى هذا الزاد المعرفي وألقوا فيه وأذكر على سبيل المثال: الأستاذ فؤاد صالح السيد صاحب كتاب: "الأمير عبد القادر الجزائري متصوفاً وشاعراً" والأستاذ محمد برونه من جامعة وهران بمقال عنوانه: "الوصف في شعر الأمير عبد القادر" المنشور بمجلة (دراسات جزائرية) جامعة وهران، وغيرهما من محبي اللغة العربية والمخلصين إلى أعلامها. ومقاربتني ستكشف بعون الله عن سرّ الخمرة الإلهية والعشق الإلهي من خلال شعره الذي لم يتغن بالماديات كما عهدنا كذلك عند معظم الشعراء.

### نبذة عن حياة الأمير

هو عبد القادر بن محي الدين الحسني، المولود بتاريخ الثالث والعشرون من شهر رجب عام 1222هـ الموافق لـ 26 سبتمبر 1807م بالقيطننة، غريس معسكر، نال اهتماما وعناية كبيرين من قبل والده الذي ظل ملازما له في السراء والضراء، حيث إنه لم يفارقه حتى في إقامته الجبرية، وقد رافقه في رحلته إلى بيت الله الحرام دون إخوته<sup>1</sup>.

(1) Université docteur Moulay Tahar, 20000, Saïda, Algérie.

<sup>1</sup> ينظر: الأمير عبد القادر، (2004)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ص. 65.

لقد تولى الأمير عبد القادر قيادته للجهاد تحت إشراف والده، لعل هذا الذي ساعده على بناء الدولة الجزائرية التي نال زعامتها إبان العهد العثماني.

تنقل معظم الكتابات أن الأمير عبد القادر قد نبغ في سن مبكرة؛ وربما يعود السبب الأول إلى صحبته لوالده، بالإضافة إلى عبقريته وإلى اختلاطه بأهل العلم والمعرفة والثقافة والسياسة، وكذلك إلى مجالسته لزعماء القبائل وكبرائها. الأمر الذي يسر عليه الاستفادة من تجاربهم الذاتية وخبراتهم السياسية، كما قرّبه من الميردين الوافدين على الزاوية ليعايش عن قرب طهارة فقه تصوف الطريقة القادرية<sup>2</sup>.

ويشير تشرشل بأن الأمير يكون قد تمكن في زمن قصير من إتقان القراءة، ومبادئ الحساب والكتابة والارتقاء إلى رتبة الطالب، الأمر الذي مكّنه من حضور حلقات دروس الكهول، ودفع به إلى تدعيم ثقافته الذاتية لمطالعة أمهات الكتب في خلوته الليلية<sup>3</sup> وبعد هذا الاستعداد؛ كان من البديهي أن يتفطن والد الأمير إلى موهبة ابنه في سرعة الاكتساب، فبعثه في بادئ الأمر إلى وهران للاحتكاك بتجارب الكبار وصفوة العلماء بهذه المدينة؛ أمثال: الشيخ أحمد بن الطاهر قاضي أرزيو، وأحمد بن خوجة وغيرهما<sup>4</sup>، فكان من ثمار ما جناه الأمير؛ التثقيف السياسي المبكر ثم التمرن على تجارب الغربية ولوعتها، وكذا الاحتكاك بخدام النظام وأهل المعرفة والعلم؛ لما كانت تزخر به مدينة وهران من مكاتب علمية ودينية، ومؤسسات ثقافية متنوعة؛ تنمي الذكاء وتشبع الفضول، وتملأ الفراغ، وتساعد على الاستفادة من الفقهاء والعلماء الوافدين على المدرسة أمثال: محمد بن القريد، ومصطفى بن الهاشمي، وغيرهما من علماء اللغة والفلسفة والمنطق.

ولقد كانت الرحلة القسرية إلى وهران بمثابة تكوين حقيقي لشخصية الأمير؛ ولعل هذا ما أهله للاستفادة من رحلته إلى بيت الله الحرام، حيث جالس علماء من تونس، ومصر، وبغداد. كما استفاد من حلقات الدروس التي كانت تلقى بالجامع الكبير بدمشق<sup>5</sup>.

<sup>2</sup> ينظر: ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي، (1984). في تاريخ العهد العثماني. الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، ص. 228.

<sup>3</sup> ينظر: تشرشل، حياة الأمير عبد القادر. ص. 61.

<sup>4</sup> ينظر: بلغراد محمد، (1983م). الأمير عبد القادر. مجلة التاريخ، عدد خاص، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص. 125.

<sup>5</sup> ينظر: المرجع نفسه، صص. 96-100.

ومن ميول الأمير؛ الرياضة الذكورية التي اختص بها فرسان عصره، التي تقترب بالتمرن على سرعة إطلاق النار ودقة إصابة الهدف، والحرص على اليقظة لمواجهة العدو، والتأهب للكر والفر في ميدان القتال المفترض؛ وكل هذا كان لابد له من صبر وتحمل، بالإضافة إلى التحضير النفسي والبدني؛ ومن البديهي أن هذه التحضيرات التي مارسها الأمير أكسبته كفاءة عسكرية، تلك التي أكدها الماريش الكاستلان<sup>6</sup>: "وتقاسمه الحكم كل الذين تعرضوا للأمير في كتاباتهم عن الحملات الإفريقية، وتبعهم كل كتّاب التاريخ المهتمون بشخصيته العسكرية، من أولئك الذين يجمع كثيرهم على تكامل شخصيته في التفكير والتنفيذ، ويقرون بامتلاكها قوة من الصبر والتجلد، لا يتمتع بها في نظرهم الإنسان العادي<sup>7</sup>."

يرى كثير ممن أروا للأمير بأن سفريته الحجازية قد أكسبته قوة وجلدا، لما كان للسفر إلى بيت الله الحرام من مشقة وصعوبة المسالك، خاصة وأن رحلته تلك دامت سنتين. لهذا السبب يرى بعض النقاد بأن قوته تمثل معجزة ربانية<sup>8</sup>، وبعضهم الآخر يسميه مدرسة حربية متنقلة والذي يدعم شخصية الأمير العسكرية والدينية هو مطالعته لأمّهات الكتب - كما سبق الذكر - خاصة "أفلاطون، وابن خلدون، والغزالي، وابن رشد وآخرون"<sup>9</sup>. يؤكد هذا الاكتساب مؤلفاته هو شخصيا؛ خاصة كتاب (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل)، بالإضافة إلى مؤلفه (المواقف).

## الإبداع الأدبي للأمير

### آثاره النظرية

- وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب.
- المقراض الحاد لقطع لسان الطاغى في دين الإسلام من أجل الباطل والإلحاد.
- ذكرى العاقل وتنبيه الغافل.
- المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد.

<sup>6</sup> Compagnes d'Afrique, Marechal De Castellqine, p:467.

<sup>7</sup> Histoire de l'Algérie contemporaine, Ch André, Juillien, p.179-181.

<sup>8</sup> Lettes d'un soldat, De Montagne, p. 438.

<sup>9</sup> ينظر: تشرشل، شارل هنري (1974م). حياة الأمير عبد القادر. (سعد الله أبو القاسم، ت وتحق.). تونس: الدار التونسية للنشر، ص. 71.

- تعليقات مع حاشية جده عبد القادر في علم الكلام.
- الصافنات الجياد.
- رسائل متنوعة.

### شعره

- الديوان.
- القصائد الواردة في مقدمة كتاب المواقف.

### نقد وتعليق على آثار الأمير

من مؤلفات الأمير التي حفظها التاريخ دون غيرها ؛ كتاب (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) ومؤلف (المواقف) الذي يمثل مخطوطا محفوظا بالمكتبة الوطنية بالجزائر، بالإضافة إلى مذكرته التي كتبها بسجنه الذي دام قرابة خمس سنوات منذ عام 1849، حيث تمثل هذه المذكرة سيرة ذاتية لمسار حياة الأمير، التي قام محمد الصغير بناني بتحقيقها والتقديم لها، وكذا التعليق عليها بصحبة محفوظ سماني ومحمد الصالح الجون

أ- مؤلف (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) : يقول في كتابه (مؤلف ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) : " اعلموا أن الإنسان من حيث حصوله في الحيز والمكان، فجسم كسائر الأجسام، ومن حيث يتغذى وينسل فهو نبات، ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار فالحيوان ومن حيث صورته وقامته الصورة المنقوشة على الحائط، يتجلى واضحا أن الأمير كان واسع الثقافة في العلوم المنقولة وكذا المعقولة. وفي المصدر نفسه وجدناه يقول : " ولا شيء أقيح من الإنسان مع ما فضله الله به، من القدرة على التحصيل الكامل بالعلم، أن يهمل نفسه ويعربها من هذه الفضيلة"، هذا الكلام الذي يعد بحق حجة على عبقرية الأمير ووعيه بإدراك حقيقة الأمور الدينية والدينيوية.

ب- مؤلفه (المواقف) : الذي لا يدرك معناه إلا من كان من فئة واسعة الثقافة الإسلامية واليونانية ؛ يقول في هذا المؤلف : "فالحق تعالى له القدم وما له دخل في الحدوث، والعالم له الحدوث وما له دخل في القدم، والإنسان له القدم وله دخل في الحدوث، فهو منعوت بهما، فلهذا هو رب وعبد، عبد من حيث إنه مخلوق مكلف ورب من حيث إنه خليفة حيث إن هذا القول فيه من التأمل والتفلسف ما يجعل المعنى غامضا ومبهما.

وعن دعوته إلى الوحدة الدينية يقول الأمير : "وطريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلم، ولا الحكيم والمعلم، ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة، وسنة الرسل المرسله، وهي التي كان عليها بواطن الخلفاء الراشدين والصحابة التابعين ما يحفظ للأمير إلا النزر القليل، وما علم منه هو ما وجد في الديوان المشهور (أشعار منتخبة Poèmes Choies) الذي قام ممدوح حقي بجمعه وتحقيقه، بالإضافة إلى تحقيق زكريا صيام له، ثم نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر) من نشر ابنه محمد.

يضاف إلى كل هذا ما حققه العربي دحو في الديوان نفسه، وما هو موزع بين مخطوط مؤلف (المواقف) وكتاب برونو إتيان (عبد القادر الجزائري).

وإذا كان تاريخ الأمير عبد القادر العسكري والسياسي قد لقي اهتماما كبيرا من قبل المهتمين ؛ مؤرخين ونقاد، فإن إنتاجه الأدبي لم يحفل بتلك الأهمية إلا مؤخرا، حيث لا يزال البحث في آثاره الفنية، أو من وجهة فنية لم يرق إلى الدراسات المعقدة لمعجم ألفاظه، ومعانيه التي لا تزال تلتبس على كثير من القراء، وربما يعود السبب في العزوف عن دراسة أعماله الأدبية إلى قول بعضهم : "ليس من المعقول في هذه الحقب العثمانية المظلمة أن تجد في أي بلد عربي شعرا يغذي الروح، ويمتغ الشعور، ويمنح قارئه لغة فنية، فقد أصبح الشعر أقرب ما يكون إلى اللهو والهراء، إذ لم يعد الشعراء يعبرون عن حياتهم وعواطفهم، إنما يعبرون عن زخارف البديع اللفظية، بل عن أعشابه التي تخنق الكلام ولا تترك فيه روحا ولا حياة، ونحن إذا قرأنا هذا الشعر لا نقرؤه لتغذي به عواطفنا أو لنزيد من ثروتنا العقلية، وإنما نقرؤه على أنه طور من أطوار تاريخنا الأدبي".

ومما لم يشجع على الاهتمام بالإنتاج الأدبي، أيضا ما ورد على لسان الباحث أنس داوود الذي يقول :

"منذ أواخر العصر العباسي حتى عصرنا الحديث، كان وميض عبقرتنا الشعرية قد خبا فيه تماما، وحفلت الأجواء العربية بتفريق النظاميين ومهارات العروضيين الذين عكفوا على اللعب بالمحسنات البديعية، وإنفاق قدراتهم في نظم الأغاز، وتلفيق التواريخ في نسج مهمل، وعبارات ركيكة وصمم تام عن متابعة حركة الحياة، والإحساس بجمال الوجود.

وإذا كان هذا الحكم العشوائي، والنظرة التشاؤمية قد ثبطت من عزيمة الباحثين آنذاك معتبرين العهد العثماني خال من الشعر الفني، فإن الباحثين المعاصرين يؤكدون عكس

ذلك، حيث أخرجوا تلك الأشعار التي قيلت في العهد العثماني من الظل إلى النور، وعلى رأسها شعر الأمير عبد القادر الذي يقول عنه المرحوم صالح خرفي: "كان شعر الأمير انتفاضة للقصيد العربي في الجزائر في أواسط القرن الماضي (يقصد القرن التاسع عشر) ويخفف من وطأة الفاقة الأدبية التي اجتاحت النصف الأخير لذلك القرن، إن القصيدة الأميرية شغلت هذا الفراغ ووجد فيها الرواة بعض العزاء.

ونعتقد أن هذا الاعتراف بمثابة حجة لدحض مزاعم الأوروبيين وبعض النقاد التقليديين الذين حاولوا طمس مكانة الأمير الأدبية، مدعما رأيه السابق بقوله كذلك: "لكننا عندما ندرس الإنتاج الأدبي من خلال المواقف البطولية التي يعبر عنها، وعندما تواجهها الصورة الشعرية تجسيما لواقع فروسي، عند ذلك يكون للدراسة وجه آخر، ويكتسي النقد مقاييس أخرى، وتصبح النظرة إلى النص الأدبي أبعد ما تكون عن التجرد، وألصق ما تكون بالنظرة الشاملة الواعية لكل الملابسات والأبعاد؛ في ذلك الوقت يصبح البيت، بيت أمير شاعر لا شاعر فقط، والقصيدة؛ قصيدة فارس بطل، فيتضافر على الاستحسان أكثر من عامل... إن إنتاج الأمير في موقف بين بين، بين الإنتاج الذي يقف عملاقا بذاته، غير متهيب تعقب المقاييس النقدية المجردة، وبين الإنتاج الذي لا يواجهنا إلا مقنعا بوجه بطولي، إذا تخلى عنه تهافتت تحت مظلة النقد، أشبه برجل الفضاء إذا تعرى من أقنعتة الواقئية. ويعد ديوان الأمير عبد القادر من أكبر آثاره الشعرية، إلا أن هذا الديوان لم ينظم في فترة زمنية محددة؛ وإنما على فترات منقطعة، أي منذ بزوغ عبقرية الأمير بالجزائر إلى حين وفاته بدمشق سنة 1883م. وقد سعي ديوانه في مقدمة كتابه الصوفي الشهير بـ (المواقف).

ولقد كانت فرنسا السباقة في محاولتها الأولى لجمع أشعار الأمير، عندما ظهر كتاب (أشعار الأمير) حيث قامت بترجمته تحت عنوان (أشعار الأمير وأنظمتها العسكرية) وطبع بباريس (Paris) سنة 1848. ولا يضم هذا الكتاب إلا القصائد التي نظمها الأمير حين تواجده بالجزائر قبل نفيه إلى فرنسا في سجن "أومبواز" (Amboise)، ويحمل هذا الكتاب في طياته قصائد الأمير الخاصة بالفخر والحماسة، ذلك الشعر الذي نظمته خلال فترة جهاده الشعبي والرسعي الذي امتد من 1830 إلى غاية 1847؛ أي إلى حين ترحيله إلى فرنسا. أما القسم الأكبر من الديوان فقد نظمته الأمير خلال فترة نفيه من أرض الجزائر

التي امتدت من 1848 حتى وفاته عام 1883. ولقد اعتبرت هذه الفترة من أغنى المراحل في حياة الأمير الإنسانية والأدبية والفنية<sup>10</sup>.

واعتمادا على أهمية ديوان الأمير، قام الدكتور ممدوح حقي بتحقيقه وضبطه وشرحه أكثر من مرة، كان آخر هذا العمل الطبعة الثالثة الصادرة ببيروت بتاريخ 1965 في ثمان وثلاثين ومائتي صفحة من القطع الكبير ولقد رتب المحقق الديوان "تبعا لفنونه الخمسة: الفخر، الغزل، المساجلات، والمناسبات، والتصوف"، وهو ترتيب موضوعي تبعا لموضوعاته لا ترتيبا تاريخيا. فقط أن المحقق وعلى الرغم من عمله الجبار واهتمامه الكبير بآثار الأمير، إلا انه لم يوضح المخطوطات والوثائق التي استند إليها في تحقيقه للديوان وإن كانت موجودة في دار الكتب الظاهرية، وفي دار الكتب المصرية<sup>11</sup>.

ويرى الباحث فؤاد صالح السيد أن عمل المحقق ممدوح حقي لا يستهان به من حيث أنه يمثل مرجعا أساسا لكل باحث يود الاضطلاع على آثار الأمير عبد القادر، غير أنه يؤاخذ على ترتيبه الموضوعي، ويفضل لو أنه رتب موضوعات الكتاب ترتيبا تاريخيا زمنيا حتى يتفهم كل متلق شعر الأمير تفهما عميقا، تسير عليه قصائد الأمير جنبا إلى جنب مع مراحل حياة الأمير المتباينة، وبذلك يصبح الديوان صورة لحياة الأمير ولسيرته الشخصية<sup>12</sup>.

وإذا كان الدكتور ممدوح حقي في تحقيقاته الثلاثة كما هو موضح على غلاف الديوان (قصائد مختارة: Poèmes Choies) فإن الباقي من شعر الأمير ليعطينا من وجهة نظر العربي دحو فؤاد صالح السيد صورة واضحة عن قيمة الأمير الأدبية، وقوته الشعرية، ومقدرته الفنية في الفخر والحماسة، والمدح والتغزل، والتصوف وغيرها<sup>13</sup>.

وبناء على ما توصلت إليه معظم الأبحاث التي تناولت آثار الأمير وجدنا أن عدد القصائد والمقطوعات الواردة في كتاب (المواقف) قد بلغ عددها تسع عشرة قصيدة ومقطوعة؛ ثلاث منها وردت في الديوان، والباقية وردت في مقدمة كتاب (المواقف)؛ حيث تنتهي إلى فن أدبي فريد وهو فن التصوف.

<sup>10</sup> ينظر: السيد فؤاد، صالح (2007م). الأمير عبد القادر الجزائري - متصوفا وشاعرا. (د. ط.). الجزائر: صادر عن وزارة الثقافة، هامش، ص. 88-89.

<sup>11</sup> ينظر: السيد فؤاد صالح، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا. ص. 90.

<sup>12</sup> ينظر: المرجع نفسه، ص. 91.

<sup>13</sup> نفسه، ص. 92.

## مفهوم التصوف

أ- علم التصوف: يقول ابن عجيبة<sup>(\*)</sup>: "هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليلتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة"<sup>14</sup> والتصوف عند شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري<sup>(\*\*)</sup> - رحمه الله تعالى-: "علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية"<sup>15</sup>.

أما الشيخ أحمد زروق الفاسي<sup>(\*\*\*)</sup> - رحمه الله- فيعرفه بقوله: "التصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عن سواه"<sup>16</sup>. والتصوف عند العلامة حاجي خليفة: "هو علم يعرف به كيفية ترقى أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم"<sup>17</sup>، وقد قال: علم التصوف علم ليس يعرفه إلا أخو فطنة بالحق معروف وليس يعرفه من ليس يشهده وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف ويعرفه ابن ذكوان<sup>(\*\*\*\*)</sup> ببیت شعري مطلعته:

علم به تصفية البواطن من كدرات النفس في المواطن

(\*) ابن عجيبة أحمد بن محمد بن محمد بن المهدي، الحسني الأنجزي مفسر صوفي من أهل المغرب، مدفون ببلدة أنجرا (بين طنجة وتطوان) توفي في (1224هـ/1809م) له كتب كثيرة (الأعلام للزركلي).  
<sup>14</sup> معراج النشوف إلى حقائق التصوف، نقلا عن كتاب: النعيبي الحسني محمد خير فاطمة، (2013م). التصوف طريق التزكية والإحسان. (ط. 1). دمشق-سوريا: دار العصماء، ص. 11.  
<sup>(\*\*)</sup> زكريا الأنصاري قاضي مفسر، من حفاظ الحديث، ولد في سنبكة بشرقية مصر، وتعلم في القاهرة وكف بصره وله كتب عديدة (ت 926هـ/1520م) // (الزركلي-الأعلام).  
<sup>15</sup> على هامش الرسالة القشيرية، القشيري، ص. 7، نقلا عن كتاب: محمد خير فاطمة، التصوف طريق التزكية والإحسان، ص. 11.  
<sup>(\*\*\*)</sup> أحمد زروق صوفي وفقه مالكي، محدث له كتب متعددة، ولد بفاس، وتوفي بتكرين عام (899هـ/1493م) عمر كحالة، معجم المؤلفين.  
<sup>16</sup> أحمد زروق الفاسي، قواعد التصوف قاعدة 13، ص. 6، نقلا عن كتاب: محمد خير فاطمة، التصوف، ص. 11.  
<sup>17</sup> كشف الظنون، حاجي خليفة، ج 1، ت: 413-414، نقلا عن كتاب: محمد خير فاطمة، التصوف، ص. 12.  
<sup>(\*\*\*\*)</sup> ابن ذكوان أحمد بن عبد الله بن ذكرا، أبو العباس: قاضي القضاة بالأندلس، ولاء المنصور بن أبي عامر القضاء بقرطبة، (ت 413هـ/1022م)، (الزركلي، الأعلام).



وفي كتاب (المقدمة) يقول ابن خلدون :

"وهذا العلم -يعني التصوف- من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه، والانفراد عن الخلق والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف ؛ فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة."

واعتمادا على هذه الأقوال وغيرها مما لا يتسع البحث لإيرادها كلها؛ نخلص إلى أن التصوف علم قائم بذاته، وهو من أشرف العلوم، لأنه يختص بعلم الباطن وفقهه، وانتسابه إلى الله ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، يؤكد هذا قول الحسن بن أبي ذر<sup>(\*\*\*\*)</sup> في كتابه (منهاج الدين) أنشدونا للشبلي<sup>(\*\*\*\*)</sup> :

علم التصوف علم لا نفاذ له علم سني سماوي ربوبي  
فيه فوائد للأرباب يعرفها أهل الجزالة والصنع الخصوص

تعرف التصوف : للتصوف تعريفات كثيرة تفوق الألف قول ؛ لذا لا يمكن حصرها كلها، غير أنها تلتقي في قاسم مشترك هو التوجه إلى الله عز وجل والعمل بسنن نبيه الكريم والصحابة والتابعين. إذ هو "تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، وإتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- في الشريعة.

ب- زمن ظهور التصوف: ظهر مصطلح التصوف بعد المائتين من الهجرة ؛ أي بعد وفاة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، ولقد تعددت مصطلحاته من الصحابة إلى التابعين إلى

(\*\*\*\*) ابن أبي ذر : الشيخ العالم الصادق أبو مكتوم عيسى بن الحافظ الكبير أبي ذر عبيد بن أحمد الأنصاري الهروي، السوري، (ت 530هـ) عن عمر يناهز 93 سنة، (سير أعلام النبلاء للذهبي).  
(\*\*\*\*) الشبلي محمد بن عبد الله الشبلي الدمشقي أبو عبد الله بدر الدين بن تقي الدين، فاضل من فقهاء الحنفية، ولد بدمشق توفي (769/1376م)، (الزركلي، الأعلام).

الزهاد والعباد إلى المتصوفة. يقول د/ حسن إبراهيم حسن<sup>(\*)</sup>: "ومن المسائل التي شغلت أفكار المسلمين في ذلك العصر (التصوف) وذلك أن كثيرا من المسلمين اللذين اشتبهوا بالورع والتقوى لم يجدوا في علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب الله سبحانه وتعالى، فرأوا أن يتقربوا إليه عن طريق الزهد والتقشف، وفناء الذات في حبه تعالى وثم سمو (بالمتصوفين)".

ومع شيوع مصطلح التصوف، ظهر العديد من علماء التصوف ومشاهيرهم، وأصبحت لهم طرقا يسلكونها للوصول إلى غاياتهم، فانتشر التصوف في كل أرجاء الأمة الإسلامية على مر العصور والأزمنة. وفي جميع البقاع والأمكنة، منطلقا من الزوايا والمساجد مروراً بتدريسه في الجامعات الإسلامية، وحتى الجامعات الغربية.

ج- أهمية التصوف : تتمثل في تزكية النفس والروح عن كل ملذات الدنيا والتفرغ إلى معرفة الله وتلاوة كتابه، وإدراك أسراره مصداقا لقوله تعالى {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}<sup>18</sup>، فكل سور القرآن الكريم توحى بأن الله عز وجل قد كلف الإنسان بقسمين من الأعمال : أعمال ظاهرة (كالأوامر والنواهي : الصلاة، الصوم، الزكاة... تحريم الزنا والسرقة). وأعمال باطنة هي الأخرى تمثل أوامر ونواهي ولكنها تترتب على القلب (كالإيمان بالله وملائكته وكتبه، وكالإخلاص والتوكل والخشوع والصدق والصبر في باب الأمر، والنهي عن الكفر والنفاق والحقد...). والقسم المعول عليه في التصوف هو القسم الثاني، أي أعمال القلب لأنه محل النيات والإخلاص لله سبحانه وتعالى، وهو جانب ضروري لا يتم الإسلام إلا به، ولا يكمل الإيمان إلا به.

بعد هذا التمهيد حول : التصوف نتساءل ما مفهومه ؟

## مفهوم التصوف عند الأمير

جاء في كتاب (المواقف) للأمر أن التصوف هو : "جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية،

<sup>(\*)</sup> حسن إبراهيم حسن : دكتور في التاريخ والفلسفة، مصري المولد ولد في طنطا، وتعلم في جامعتها القديمة، والمعلمين العليا وجامعة لندن، ودرس التاريخ، تقلب مناصب عدة من عميد إلى مدير الجامعة، درس بجامعة الرباط (المغرب)، وأستاذا في جامعة بغداد ودرن بالقاهرة (ت 1388هـ/1968م)، (الأعلام للزركلي).

<sup>18</sup> سورة الجمعة، الآية : 2.

لا لشيء آخر من غير سبيل الله ومن نواهي الأمير في باب التصوف تحذيره الصوفي: "الذي يجاهد نفسه بالرياضيات الشاقة لأجل طلب جاه عند الملوك، أو لصرف وجوه العامة إليه، أو حصول غنى، أو نحو ذلك من الحظوظ النفسية.

ومن الألفاظ التي كنى بها الأمير الصوفيين: (أهل الله) وتارة (العارفون)، وأخرى (أهل الكشف والعرض) حيث لا يعني اللقب الأول: "هؤلاء الذين يأكلون النار، ويدخلون مسامير الحديد في أشداقهم، ويدخلون التنور، ويمشون راكبين على ظهور الأشخاص ليعلفهم العوام... لأن ما يصدر عن هؤلاء منه ما هو شعوذة، ومنه ما هو سيمياء، ومنه ما هو خواص نفسية يتوارثونها بينهم". وينتهي الأمير إلى تعريف شامل كاف وشاف هو أن: "الصوفية هم سادة طرائق المسلمين".

### أسباب تصوف الأمير

نزعة الأمير الصوفية: لم نورد في ترجمة حياته أنه من آل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- بناء على خطتنا في هذا البحث؛ إذ نزعت الصوفية ربما تعود أسبابها أنه من حفدة سيد الخلق محمد ﷺ؛ إذ هو الأمير عبد القادر بن معي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد المشهور بابن خدة وهي مرضعته، ابن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله المخفي بن الحسن المثنى بن حسن السبسط بن علي بن أبي طالب<sup>19</sup>، وأم الحسن فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلقد حاول الأمير أن يحافظ على نسبه الشريف بانعكافه على الخلوة والعبادة إلى أن توفي رحمه الله وطيب ثراه.

نزعة الإنسانية: للأمير مواقف تنم على أنه لم يكن يؤمن بالحواجز الجغرافية وبالحدود الفاصلة بين البشرية؛ إذ كان رجلا متسامحا منذ تواجده بالجزائر وأثناء نفيه بفرنسا إلى أن استقر به المقام بدمشق، ولقد "استطاع أن يحقق عمليا أسلوب الأريحية في العربية في النجدة والبذل، وحماية الدماء، وطابع الإيمان الإسلامي في التسامح والأخوة".

<sup>19</sup> الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. ص. 29، وينظر: كذلك الأمير محمد بن الأمير عبد القادر، (1384هـ/1964م). تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر. (ط. 2). (حقي ممدوح، شرح وت.ج). بيروت: منشورات دار اليقظة، ص. 923.

وفي موقف النجدة جاء على لسانه أنه: "لو أصغى إلي المسلمون والنصارى، لرفعت الخلاف بينهم، ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا ولكن لا يصغون إلي. ويقول عن نفسه حينما التحق بمدارس اليهود لتدريس التوراة.

فطورا تراني مسلما أي مسلم زهودانسوكا خاضعا طالبا مدا  
وطورا تراني للكنائس مسرعا وفي وسطى الزنار أحكمته شدا  
وطورا بمدارس اليهود مدرسا أقرر تورا وأبدي لهم رشدا  
فالواضح أن هذه الأبيات تؤكد الروح الإنسانية للأمير، ومدى وعيه بحقيقة الإنسان  
والإنسانية.

تنشئته الدينية: تربي الأمير ونشأ نشأة دينية انطلقت من الزوايا بدء بوالده محي الدين  
الحسني، حيث تلقى مبادئ العلوم الدينية والفقهية فيها وتمنى أن يكون مرابطا مثل والده،  
ولعل جهاده وهو لا يزال صغيرا، وحفظه للقرآن الكريم في سن مبكر وسفرياته الإجبارية  
والقهرية، كل ذلك قد أهله فيما بعد لتحمل كل مصاعب الدنيا، ومن ثم سهل عليه  
التحكم في النفس وتزكيتها وترك كل لذائد الدنيا.

إيمانه بالقضاء والقدر: يؤمن الأمير المجاهد والسياسي والفارس المغوار أن كل ما  
حدث له انطلاقا من الجزائر، إلى وهران، إلى فرنسا، إلى دمشق، إلى الحجاز؛ كان تهيئة  
ومشيئة إلهية للعبادة والتصوف، حيث نلمس هذا الإيمان في كتاب العهد الذي سلمه  
الأمير لـ "لويس نابليون" (Louis Napoléon) الذي تضمن عدم العودة إلى الجزائر قائلا:  
"عندما أمرني الله بالهوض نهضت،... ولكن عندما أمرني بالتوقف توقفت، وعند ذلك  
فقط تخليت عن السلطة واستسلمت"<sup>20</sup>. مضيفا قوله: "لقد خط لي بالميلاد والتربية  
والميل، إنّه دور طالما اشأبت نفسي لاستئنافه، وطالما صليت إلى الله أن يسمح لي بالعودة  
إليه، الآن وقد قاربت سنوات عمري الشاقة نهايتها"<sup>21</sup>.

الملاحظ أنه لا صراحة وبأصدق وأعمق مما ورد على لسان الأمير نفسه، من أن نفسه  
منذ كان طالبا كانت تواقفة إلى التصوف والعودة إلى الله، وقد أوتي سؤله ولكن بعد مشقة

<sup>20</sup> شارل هنري تشرشل، (1974م). حياة الأمير عبد القادر، (سعد الله أبو القاسم، تر. تق وتغ). تونس:  
مذكرات الدار التونسية للنشر، ص. 267.

<sup>21</sup> المرجع نفسه، ص. 294.

جد مضمّنية (حرب وسجن ونفي عن الوطن)، فأى مشقة وأي جهاد بعد هذا غير الانشغال بحب الله والولع بهذا الحب ؟

يطول الحديث عن تصوف الأمير وتاريخه وأسبابه وكل ما تعلق بحياته وبنزعتة الصوفية، وعن شعره وأغراضه، وما يهمننا في بحثنا هذا هو سر تلك الخمرة التي تغنى بها الأمير في شعره. فهل هي الخمرة الحقيقية التي تسكر وتذهب بالوعي وتجعل شارها يرتكب الجرائم عاصيا الله ورسوله ؟ أم هي خمرة إلهية حيث أن الحب الإلهي هو الذي يجعل صاحبه ثملا بحبه لله والتفاني في هذا الحب ؟ فأيهما أحلى يا ترى ؟

### الخمرة الإلهية في شعر الأمير عبد القادر الجزائري

أزمة اللغة الصوفية : لغة الصوفية، هذه الأبجدية التي لا تقرأ عند السالكين إلا بعين القلب، تمثل فضاء مهما ينبغي الوقوف عنده بتأن لكل من يروم مقارنة النص الصوفي دلاليا ومعرفيا، ففي ساحاتها سقط فرسان الصوفية شهداء أفكارهم وآرائهم الذوقية العرفانية، وعلى أسوار حروفها نكلّ بالحلاج وصلب في النهاية عند محاولته المبكرة توليد لغة صوفية جديدة، وبسبب هذه اللغة أتهم بعض المتصوفة بالزندقة، ونعت بعضهم بالكفر والخروج عن الدين ؛ ومن هؤلاء : محي الدين بن عربي ؛ شيخ الصوفية الأكبر والضعيف التلمساني، والنفري، وغيرهم<sup>22</sup>.

ويعود اتهام المتصوفين إلى معجمهم اللغوي الخاص بهم، يقول الدكتور يوسف زيدان : "عانى النص الصوفي، منذ عصر التدوين من الاصطدام بحائظ اللغة، فاللغة العادية لا تفي بالتعبير عن عالم الصوفية ذي الخصوصية الشديدة، وقد بلغت حدة الاصطدام باللغة قدرا أودى بحياة بعض الصوفية، وقادهم إلى نهايات تراجيدية، وأشهر هؤلاء: الحسين بن منصور الحلاج المقتول سنة 309هـ وعن مصرعه ؛ قال الشيخ عبد القادر الجيلاني، حينما سئل عن أمر الحلاج؛ يبين أزمة اللغة التي عثر فيها الحلاج قائلا : "طار واحد من العارفين إلى أفق الدعوة بأجنحة (أنا الحق والحق أنا) رأى روضة الأبدية خاليا من الحسيس والأنيس، صفر بغير لغته تعريضا لحتفه".

<sup>22</sup> ينظر : قيديري قويدر، (2004م، ماي). دلالية مصطلح السماع في الفكر الصوفي. مجلة الأثر، جامعة ورقلة، (3)، ص.304.

الرموز الصوفية تعريف الرمز : ربما كان أرسطو (Aristote) أقدم من تناول الرمز على أساسه، وعنده أن الكلمات رموز لمعاني الأشياء، أي رموز لمفهوم الأشياء الحسية أولاً، ثم التجريدية المتعلقة بمرتبة أعلى من مرتبة الحس، وهو لذلك يقول : "الكلمات المنطوقة رموز لحالات النفس، والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة (هلال، 1973م، ص. 37-38). وبهذا المعنى يكون أرسطو قد حصر حدود الرمز وقصره على الرموز اللغوية، أما ريتشارد (Richards) وأوجدن (Ogdans) فإنهما يفرقان بين الاستعمال الرمزي والاستعمال الانفعالي للغة، إذ يعني الاستعمال الرمزي عندهما تقرير القضايا ؛ أي تسجيل الإشارات وتنظيمها وتوصيلها إلى الآخر، بينما الاستعمال الانفعالي هو استعمال الكلمات بقصد التعبير عن الأحاسيس والمشاعر والمواقف العاطفية.

أما العالم الألماني ستيفان أولمان (Stephen Ulmen) ؛ فيقسم الرموز إلى : تقليدية كاللغات مكتوبة أو منطوقة، وطبيعية هي التي تتمتع بنوع من الصلة الذاتية بالشيء الذي ترمز إليه كالصليب رمز للمسيحية.

وفي علاقة الرمز بالتعبير عند الغربيين، فقد بلغ الشعراء الغربيون غايتهم بفضل توظيفهم للرمز، إذ جعلوا اللغة التي شاخت وأصبحت غير قادرة على التعبير رموزاً حتى ينفسح أمامها البوح باختلافات الذات وارتعاشات اللاشعور، ومن دواعي الرمز عند الغربيين بالإضافة إلى ضيق اللغة، الوازع الديني، حيث استندوا إلى الأساطير بغية إحياء التاريخ والاعتماد عليه. ولعل هذا الذي أشار إليه شكري غالي بالقول : "إن عودة شعراء العالم في القرن العشرين إلى الأسطورة هو تعبير ملح على الإحساس الجديد بالماضي إحساساً طاغياً يفسر أزمة الإنسان الحديث في ظل الحضارة العلمية الصاخبة، ولذلك كان إيليون إنساناً ممتازاً في تجسيده هذه الأزمة من حيث أعلن بوضوح أن لا خلاص لنا من الأرض الخراب إلا بالعودة إلى أحضان الدين" ومن هنا، فليس للرمز قيمة إلا بمدى دلالته على الرغبات المكبوتة في اللاشعور نتيجة الرقابة الاجتماعية والأخلاقية.

وإن كان للمتصوفين معجمهم الخاص بهم ؛ فإن اللغة الصوفية تمثل إشكالية منهجية ومعرفية مطروحة منذ القدم عند الباحثين والمحققين القدامى والمحدثين، بعدها السبيل الوحيد المفضي إلى عملية قراءة النص الصوفي، وتفكيك بنيته الدلالية ؛ وفي هذا الإطار يقول صلاح فضل : "يبدو أن الشعراء الصوفيين هم أبرز من مارس إعادة التفسير اللغوي في الشعر قديماً، عن طريق ترك الدلالات الأولى الحسية والدنيوية لكلمات تتصل بمجالات

الجنس والخمر وحالات النفس لإدراجها في أنساق رمزية جديدة مرتبطة بتواجدهم وعالمهم.

ويبدو أن السبب في نشأة الشعر الرمزي عند الصوفيين هو تلك الحملة القوية التي شنها الفقهاء على المتصوفة، إذ أخذ كل فريق يناوئ الآخر ويشنع عليه فاضطر الصوفية إلى الرمز والتعمية في كلامهم (طلس، 1943م)، بنزعتين: الغزلية والخمرية، ولعل المتصوفة قد "اصطنعوا هذا الأسلوب الرمزي لأنهم لم يجدوا طريقاً آخر يمكننا يترجمون به عن رياضتهم الصوفية"

ولقد كانت الرمزية الخمرية عند الصوفيين غنية صادقة، فقد عبر الصوفيون عن شوق الروح إلى معرفة الله، ومحبتة بعبارات تكاد تكون عبارات المتغزلين من شعراء الغزل والنسيب، بل إن هذا التشابه ليشتد أحياناً، فنتوهم أن قصيدة صوفية هي قصيدة خمرية أو غزلية كشأن قصائد شعراء الخمرة والغزل.

الرموز الصوفية في شعر الأمير عبد القادر: بالعودة إلى شعر الأمير؛ يمكن التمييز بين رمزيتين صوفيتين هما: الخمرة، والحبيب وهو النهج الذي سلكه الأمير كسابقه.

متن قصيدة الخمرة الإلهية، يقول الأمير:

ويشرب كأساً صرفة من مدامة      فيا حبذا كأس ويا حبذا خمر  
فلا غول فيها لا ولا عنها نزفة      وليس لها برد وليس لها حر  
معتقة من قبل كسرى مصونة      وما ضمها دن ولا نالها عصر  
ولا شأنها زق ولا سائر سائر      بأجمالها كلا ولا نالها تجر  
فلو نظر الأملاك ختم إنائها      تخلوا عن الأملاك ولا قهر  
ولو شمت الأعلام في الدرس ربحها      لما طاش عن صوب الصوب لها فكر  
هي العلم كل العلم والمركز الذي      به كل علم كل حين له دور  
فلا عالم إلا خبير يشربها      ولا جاهل إلا جهول بها غر  
ولا غبن في الدنيا ومن رزيئة      سوى رجل عن نيلها حظه نزر  
ولا خسر في الدنيا ولا هو خاسر      سوى واله والكف عن كأسها صفر

وفي شمها - حقا- بذلنا نفوسنا      فهان علينا كل شيء له قدر  
 وملنا عن الأوطان والأهل جملة      فلا قاصرات الطرف تثني ولا القصر  
 وعن أصحاب الذوائب من غدت      ملاعهم مني: الترائب والنحر  
 هجرنا لها الأحباب والصحب كلهم      فما عاقنا زيد ولا راقنا بكر  
 ولا ردنا عنها العوادي ولا العدى      ولا هالنا قفر ولا راعنا بحر  
 وقد أنعم الوهاب فضلا بشرها      فله حمد دائم وله الشكر  
 فقل للملوك الأرض: أنتم وشأنكم      فقسمتكم ضيبي وقسمتنا كثر  
 خذ الدنيا والأخرى أباغهما معا      وهات لنا كأسا فهذا لنا وفر

نقد وتحليل : تعد هذه القصيدة الرائية "من جانبها الظاهر خطابا مناقضا للحقيقة الشرعية - من وجهة نظر التلقي السليبي- لذلك الخطاب الصوفي وأقصى من دائرة الكتابة الأدبية لأنه خاطب الناس بغير ما ألفوه، فتعطل نجاح العملية التواصلية لالتباس مفردات المعجم الصوفي، ولما تحمله تلك اللغة المستعملة من رموز مشفرة. ولغموض الخطاب الصوفي على المتلقين واتهام سالكيه بالزندقة والخروج عن الدين، عمد الصوفية إلى الاجتماعات السرية"، وقد قال محي الدين بن عربي : "هذا الفن من الكشف والعلم يجب ستره عن أكثر الخلق ؛ كما فيه من العلو فعورُهُ بعيد، والتلف فيه قريب، فإن من لا معرفة له بالحقائق، ولا بامتداد الرقائق، ويقف على هذا المشهد من لسان صاحبه المتحقق به، وهو لم يذقه ربما قال: أنا من أهوى ومن أهوى أنا، لهذا نستره ونكتمه".

خصائص خمرة الأمير: تطرق الأمير للتغني بالخمرة في قصيدته الصوفية على غرار قصيدة (ابن فارس) الميمية التي يرمز فيها إلى المعرفة الإلهية أو لمعرفة الحبيب الأزلي والتي مطلعها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة      سكرنا بهما من قبل أن يخلق الكرم  
 تتشابه القصيدتان القصيدتان إلى درجة التطابق، ويمكن تقسيم القصيدة إلى مقاطع أربعة حيث يمثل كل مقطع قيمة في ذاته :

- الخمرة القديمة (المعتقة) من البيت (1-2) : خمرة الأمير هي خمرة قديمة قبل عصر



كسرى، وهي محفوظة حيث لا علاقة لها بعصر معين، إذ هي خمرة صافية نقية غير ممزوجة بما يعكر صفائها ولا يمكن بيعها ولا المتاجرة بها.

- الخمرة التي لا تسكر : إذا كانت الخمرة بعد الحساب والعقاب هي من ألد شراب الجنة، فالأكيد أنها خمرة لا تسكر، ولا تذهب بعقل الإنسان ووعيه، وهذه هي خمرة الأمير التي يتغنى بها ويدعو إليها (1-2).

- أثرها في البيت (3-4) : الأمير يدعو الملوك والأعلام إلى شربها لما لها من أثر في عدم الابتعاد عنها إن هم تذوقوها أو نظروا إلى ختم إنائها، أو شموا ريحها. وهذا الوصف هو نفسه الذي قام به ابن الفارض.

الخمرة هي العلم والمعرفة : تمثل خمرة الأمير في البيت الخامس العلم بكل اكتشافاته، والمركز الذي تدور حوله كل العلوم.

- الخمرة هي الغنيمة الكبرى : في الأبيات (6-7-8) يرى الأمير بأن الغنيمة الكبرى في هذه الحياة هي أن يعي كل خبير قيمة هذه الخمرة، ومن لم يشربها فهو خاسر وجاهل.

- الهجرة إلى الخمرة : في الأبيات (9-10-11-12-13) يخبرنا الأمير بأنه لمجرد شمها فقد عانى وراض وجاهد، ونفي عن الأوطان وتخلي عن الأهل والأحبة، وعن قاصرات الطرف والقصور، وعن القيادة والسلطة، وعن فلذات كبده وحتى عن الأصدقاء، ولم يوقفه أي خطر أو عدو ولا أربعه خلاء ولا صحراء، ولا راعه هول بحر، فلا شيء ثبط من عزيمته عن هجرته الروحية إلى سيده الأعلى وحببيه المبجل.

- بلوغ المقصد : في الأبيات الأخيرة (14-15-16) توجي بوصول الأمير إلى غايته السامية بعد تلك الرحلة الشاقة والمضنية التي ترك فيها كل الأمور الدنيوية التي لا يستطيع إنسان عادي أن يتركها، ولا تتأتى إلا لمن يتحمل مرارة الصبر وكظم أهواء النفس.

يعترف الأمير أخير، وهي نتيجة حتمية لكل من يصبر أنه قد من عليه الوهاب بشرب الخمرة وهو لذلك يحمده ويشكره لأنه بشرها توصل إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، وإلى معرفة الأسرار العلوية التي لا يمكن أبدا أن يعرفها أحد مع متع الدنيا المادية، إذ نعمة معرفة الله هي فوق كل المعارف والنعم.

والشرب في تصور السراج الطوسي هو : تلاقي الأرواح والأسرار الطاهرة لما يرد عبيها من الكرامات وتنعمها بذلك، فشبه ذلك بالشرب لثنيه وتنعمه بما يرد على قلبه من أنوار مشاهدة قرب سيده، لذلك اعترف الأمير ببلوغه الغاية الأسى حين قال :

وقد أنعم الواب فصلا بشربها فله حمد دائم وله الشكر

فالفضل هو النعمة، والنعمة تستوجب الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى.

الخمرة والمحبة عند الأمير : إن ذا النون المصري لا يربط الشرب بالخمرة بل بالاعتراف من بحر المحبة، لهذا يخلو الأمير إلى حبيبه، وقد أديرت الأباريق والأقداح المملوءة من خمرة المعرفة الإلهية، إذ كلما ازداد شربا ازداد معرفة بحبيبه، وكلما زاد معرفة ازداد محبة له. يؤكد هذا قول الأمير :

أود طول الليالي أن خلوت بهم وقد أديرت أباريق وأقداح

وأما الشراب عند التهانوي فهو العشق والمحبة، والسكر والغياب عن الوعي، والمعنى الذي يلتقي عنده كل من السراج الطوسي، وذي النون المصري، والتهانوي ؛ هو الارتواء من عذوبة الذكر وسائر الطاعات.

معجم الألفاظ : إن استعمال الأمير لألفاظ معجمه الصوفية الخاص بالخمرة وأثرها وغايتها (كأسا صرفة، مدامة، خمرة، لا برد ولا حر، ختم إنائها، تخلو طوعا لا قهرا، شمت ريحها، معتقة، مصنونة، دن، ترائب والنحر، ولا هالنا قفر ولا راعنا بحر...)، لم يكن اختيارا عفويا استدعته الضرورة الشعرية، ولا تفعيلات الأوزان، وإنما هو اختيار مقصود أنه أراد أن تتصف حالة السكر بالدوام، إذ المتصوف على اتصال دائم بمعبوده الحبيب، وهو دائم الذكر له حتى لكانه يجد في ذلك ما يبعثه على النشوة السكر، وحالة المحبة الخالصة التي تستشفها من ذكر الحبيب تقتضي هذا السكر الروحي لأنه "غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب".

إن الذكر هو قوام المجاهدات الصوفية ؛ أي "طرد الغفلة، فإذا ارتفعت فأنت ذاكر وإن سكت. وهو أيضا "الخروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة على غاية الخوف أو لكثرة الحب.

فالتصوف قيمة روحية يلتزمها الصوفي ليبقى على اتصال دائم بالله عز وجل كما يلزم التمل الخمرة ويطلب النشوة فخمرة الأمير لا تسكر ولا تتلف العقل، وهو لذلك قال :

فلا غول فيها لا ولا عنها نرفة وليس لها برد وليس لها حر

مقتبسا في هذا البيت من قوله تعالى : (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى)<sup>23</sup>، وهو وصف للجنة وأن الذي يفوز بها لا يلقى فيها إلا كل الخير خاصة العارفين بالله.

الواقع أن الخمرة توضع في قارورات جميلة، وهو غرض تجاري، وحتى كؤوسها لها شكل جميل وهذا الشيء المادي هو الذي أسقطه الأمير في قوله واصفا داعيا :

فلو نظر الأملاك ختم إنائها تخلوا عن الأملاك طوعا ولا قهرا

وهو تصوير فني جميل إذ لا أحد ينكره إلا جاهل لم يكن له حظ في شربها أو نيلها، وهذه الصورة هي تألف بين مستويين من الحسن والجمال (ختم إنائها) وهو وصف طبيعي والآخر روحي وهو (لذة الذكر). لا لذة الشراب المادي ؛ إن الأمير يربط بين النشوة الروحية بالنشوة المادية وهذا ينسجم مع الوظيفة البلاغية والحجاجية للتصوير الفني الذي يقدم المعنى المجرد في هيئة حسية.

### ريح الخمرة : يقول الأمير

ولو شمت الأعلام في الدرس ريحها لما طاش عن صوب الصواب لها فكر

وفي قوله أيضا :

وفي شمها حقا بذلنا نفوسنا فهان علينا كل شيء له قدر

فالواضح أن الأمير لم يخلع عن المدامة ريحها الذي لا يخطئ في معرفته عارف، ومن أجل ريحها بذل الأمير كل جهد وكل مشقة، وفارق الأحبة... وتيسر عليه وهان كل شيء له قيمة وقدر، فريحها هو ذلك المسك ذو الرائحة الزكية التي هي سر تعلق الشاعر بها وترك كل ما دونها. وبعد ما أتى الأمير على وصف الخمرة في ذاتها وموقعها من نفسه، ينحو في وصفها منحى آخر يرسم من خلاله صورة لصانعيها في نفوس الملوك والأعلام بمجرد ذكرها أو شم ريحها. وجلي أن سكر هذه الخمرة لا إرادي وليس من محض اختيارهم، ولذلك فهم غير آثمين ولا تثريب عليهم ما داموا لا يملكون حيلة في دفع أثرها في نفوسهم، فمجرد ريحها يمثل باعثا على سكرها.

<sup>23</sup> سورة طه، الآية : 118-119.

وختاما ؛ إن تصور شدة تعلق الذاكر بمحبوبه في الرؤية الصوفية تماثل شدة تعلق الثمل والمدمن بتعاطي الخمرة في موقف الشرب المادي، ولا يخفى على كل متلق ما ينطوي عليه هذا التماثل من جماليات وقيم فنية، وهو مزاجية بين البعد الفني والغاية الخلقية في جنوحهم إلى نزعة السكر والصوفية. ويعد العمل الذي قام به الأمير عبد القادر وغيره من العارفين والمتصوفين اجتهادا في صياغة فنية لمعادل موضوعي، كان من شأنه استدراك الشرخ الذي أحذق خطره بمسرح الأخلاق الإسلامية، ولذلك سعوا لاستدراج العامة واستمالتهم إلى الانتشاء والسكر بمدامة معنوية تتمثل في الذكر والمجاهدات والسماع، من شأنها أن تهذب طباعهم وترتقي بها إلى آفاق رحبة من السمو الروحي.

وأخيرا، فإنني لا ادعي بأنني قد أحطت بكل ما يتعلق بآثار الأمير الأدبية الصوفية ؛ إن شعرا أو نثرا فقد تطرقت فقط إلى الخمرة الإلهية ورموزها الصوفية في شعر الأمير عبد القادر الذي سار على نهج وهدي من سبقوه من المريدين كابن عربي في شعره عن المحبة، وكابن الفارض في شعره عن الخمرة الإلهية. ولا تزال مناطق الظل في خطاب الأمير عبد القادر الجزائري لم يسلط عليها الضوء كما يستدعيه قدره وقيمه. ونأمل أن نكون قد ساهمنا ولو بنزر قليل في إعادة الاعتبار لأحد شعراءنا الجزائريين الذي يمثل مجاهدا وسياسيا وبطلا وشاعرا ومتصوفا، وإنه لشرف للجزائر أن يكون لها قامة عظيمة كالأمير عبد القادر بن معي الدين الحسني.

## بيبليوغرافيا

- الأمير عبد القادر الجزائري (1996). المواقف، مخطوط الأمير عبد القادر. الجزء الثاني، صورة من الأصيل المحفوظة بالمكتبة الوطنية، الجزائر.
- الأمير عبد القادر، تشرشل، شارل هنري (2004). (سعد الله أبي القاسم، ت. وت. وت.). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- الأمير عبد القادر (1996). الموقف 8، ص. 39. ص. 41. الموقف. 136، ص. 302. مج 2، الموقف. 248، ص. 648، مج (2)، الموقف. 209، ص. 20. ص. 468.
- الأمير عبد القادر (د.ت.). ذكرى العاقل وتنبه الغافل. (د. ط.). (حقي ممدوح، تح وت. ت.). مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ص. 37.

أولمان، ستيفن (د.ت). دور الكلمة في اللغة. (ط. 1). (كمال بشر، ت). القاهرة : دار الغرب، ص. 74.

بن خلكان، أحمد (1299هـ). وفيات الأعيان. (ج. 2). القاهرة : مطبعة بولاق.

بناني، محمد والجون محمد الصباح (د.ت). مذكرات الأمير القادر مخطوط سيرة ذاتية كتبها في السجن 1849م.

التهامي، الحاج مصطفى (1995). سيرة الأمير عبد القادر وجهاده. (ط. 1). (بعزيز يحيى، تح، وتق، وتغ). بيروت : دار الغرب الإسلامي، ص. 50.

التهانوي، محمد علي (1996م). موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم. (ج. 4). (نجم رفيق، تق. دحرج علي، تحق.). مكتبة لبنان ناشرون، ص. 91.

خرفي، صالح (1984م). الشعر الجزائري الحديث. الرغاية-الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب.

خوري، أمين (1888م). جلاء الغامض في شرح ديوان ابن الفارض. بيروت : المطبعة الأدبية، ص. 148.

داوود، أنس (د.ت). رواد التجديد في الشعر العربي الحديث. (د. ط). الجماهيرية الليبية.

دحماني، نور الدين (2004م). الصورة الفنية في الخطاب الشعري الصوفي. مجلة حوليات التراث، (2)، الجزائر : جامعة مستغانم، 131.

زيدان، يوسف (د.ت). المتواليات - دراسة في التصوف - . (د. ط). إدارة الكتب والمكتبات. غنيمي هلال، (1973م). النقد الأدبي الحديث. (د. ط). بيروت-لبنان : دار الثقافة.

السراج، الطوسي (2007)، اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي. بيروت-لبنان : دار الكتب العلمية.

سعيدوني، ناصر الدين والشيخ المهدي بوعبدلي (1984). في تاريخ العهد العثماني. الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب.

السيد فؤاد، صالح (2007م). الأمير عبد القادر الجزائري -متصوفا وشاعرا - . (د. ط). الجزائر: صادر عن وزارة الثقافة، هامش، صص. (29، 90، 92، 278).

ضيف، شوقي (1971م). فصول في الشعر ونقده. (د. ط). مصر : دار المعارف.

- طلّس، أسعد (1943م). الرمزية في الأدب الصوفي. مجلة الأديب اللبنانية، السنة الثالثة، (ج11)، 30.
- عبد الرحمن بن خلدون (1983). المقدمة. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- عبد القادر الجزائري (1965). الديوان. (ط. 3). (ممدوح حقي، تحق.). بيروت: دار البيقظة العربية.
- العربي، إسماعيل (1981). مذكرات الكولونيل أسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص. 94.
- العربي، دحو (2007م). مقدمة ديوان الأمير عبد القادر الجزائري. (ط. 3). الجزائر: منشورات تالة.
- غالي، شكري (1978م). شعرنا الحديث إلى أين؟ (ط. 2). دار الآفاق الجديدة.
- فتوح، أحمد محمد (1984م). الرمز والرمزية في الشعر المعاصر. (ط. 3). القاهرة: دار المعارف، ص. 35.
- فضل، صلاح (1988م). أساليب الشعرية المعاصرة. (د. ط.). القاهرة: دار قباء للطباعة.
- الكلاباذي، أبو بكر (1994). "التعرف لمذهب أهل التصوف". ص. 25، نقلا عن كتاب: التصوف، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام. (ج. 3). القاهرة: مكتبة الخانجي.
- النعيمي الحسني، محمد خير فاطمة (2013). "معراج التشوق إلى حقائق التصوف". نقلا عن كتاب: التصوف طريق التزكية والإحسان. (ط. 1). دمشق-سوريا: دار العصماء.
- نيكلسون، رينولد (1951م). الصوفية في الإسلام. (د. ط.). (شبري هنور الدين، ت. وتع.). مصر: مكتبة الخانجي.